تفسير سورةُ المؤمنون
من آية (44) إلى آية (56)
اللقاء الرابع

المعنى الإجمالي من آية (23) إلى آية (43):

يخبرُ الله تعالى أنَّه أرسَل نُوحًا إلى قَومِه بدَعوةِ التَّوحيدِ، فقال لهم: اعبُدوا اللهَ وحْدَه، ليس لكم مِن إلهٍ يَستَحِقُّ العِبادةَ غَيرُه جَلَّ وعلَا، أفلا تَخشَونَه وتخافون عَذابَه؟! فكذَّبه سادةُ قَومِه وأشرافُهم، وقالوا لعامَّتِهم: ما نوحٌ إلا إنسانٌ مِثلُكم، وليس رسولًا كما يدَّعي، إنَّما يُريدُ أن يكونَ أفضلَ منكم، ولو شاء اللهُ إرسالَ رسلٍ لأرسَلَ المَلائِكةَ يُبلِّغونَنا رسالتَه إلينا؛ ما سَمِعْنا بمِثلِ هذا الذي يدْعُونا إليه فيمَن سبَقَنا مِن القرونِ التي مَضَتْ، وما نُوحٌ إلَّا رجُلٌ به مَسٌّ مِنَ الجُنونِ، فانتَظِروا وقتًا حتى يُفيقَ مِنْ جُنونِه أو يموتَ، فتَستريحوا منه!

قال نوحٌ: رَبِّ انصُرْني على قَومي؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم لي فيما بلَّغتُهم مِن رِسالتِك.

فأوحَى الله إلى نوحٍ أنْ يصنعَ السَّفينةَ بمرأًى منه تعالى وحِفظِه، وبتعليمِه إيَّاه كيفيةَ صنعِها، وأنَّه إذا جاء أمرُه بإهلاكِ قَومِ نوحٍ بالطوفانِ، ونبَعَ الماءُ بقُوَّةٍ مِنَ المكانِ الذي يُخبَزُ فيه، فليحمِلْ في السَّفينةِ مِن كُلِّ المخلوقاتِ ذَكَرًا وأنثى، وليُدخِلْ أهلَه فيها أيضًا إلَّا مَن سبَقَ حُكمُ الله تعالى بإهلاكِه لكفرِه، ونهاه الله تعالى أن يَسأله نَجاةَ قَومِه الكافرينَ؛ فإنَّهم مُغرَقونَ لا مَحالةَ.

وأمَرَه تعالى إذا استقرَّ على السَّفينةِ وركِبَها هو ومَن معَه؛ أن يقولَ: الحَمدُ لله الذي نجَّانا مِنَ القَومِ الظالمين. وأمره أن يدعوَ ربَّه أن يُنزِلَه إنزالًا مباركًا؛ فهو سبحانَه خَيرُ المنزِلينَ.

ثم بيَّن تعالى أنَّ في إهْلاكِ قَومِ نُوحٍ الكافرينَ وإنجائِه المؤمِنينَ لَدَلالاتٍ واضحاتٍ على صِدقِ ما جاء به رُسُلُ اللهِ مِن عنده، وإنْ كان الله تعالى لَمُختَبِرٌ الأُمَمَ بإرسالِ الرُّسُلِ إليهم قَبلَ إيقاعِ العُقوبةِ بهم؛ لِينظرَ كيف يَعملونَ.

يخبرُ الله تعالى: أنه أنشَأ مِن بَعدِ قَومِ نُوحٍ قومًا آخَرينَ، فأرسَل فيهم رَسولًا منهم، فقال لهم: اعْبُدوا اللهَ وَحْدَه؛ ليس لكم مَعبودٌ بحَقٍّ غَيرُه؛ أفلَا تَخافونَ عِقابَه إذا عَبدْتُم غَيرَه؟! وقال السادة والأشرافُ مِن قَومِه الَّذين كَفَروا باللهِ، وأنْكَروا الحياةَ الآخِرةَ، وأطْغَتْهم النِّعَمُ التي أنعمَ الله بها عليهم في الدُّنيا: ما هذا الرسولُ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكم، يأكُلُ مِمَّا تأكُلونَ مِنَ الطَّعامِ، ويَشرَبُ مِمَّا تَشرَبونَ مِنَ الشَّرابِ، ولئنِ اتَّبَعتُم إنسانًا مِثلَكم إنَّكم -إذًا- لخاسِرونَ.

وقالوا لقومِهم أيضًا: أيَعِدُكم أنَّكم إذا مِتُّم وصِرتُم تُرابًا وعِظامًا مُفتَّتةً، أنكم ستُخْرَجونَ مِن قُبورِكم أحياءً؟! بَعِيدٌ بعيدٌ جِدًّا ما يعدُكم به؛ ما حَياتُنا إلَّا في هذه الدُّنيا؛ يَموتُ فيها الأحياءُ مِنَّا فلا يَحْيَوْنَ مرَّةً أخرى، ويُولَدُ آخَرون فيَحْيَوْن فيها، وما نحن بمبعوثينَ أحياءً مَرَّةً أُخرَى بعدَ الموتِ. وما هذا الذي يدَّعي أنَّه رسولٌ إلَّا رجُلٌ اختَلَقَ على اللهِ كَذِبًا، وما نحن بمُصَدِّقينَ له فيما يقولُه!

ثم يخبرُ تعالى أنَّ رَسولَهم دعا رَبَّه قائِلًا: رَبِّ انصُرْني عليهم؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم لي. فقال اللهُ مُجيبًا لِدَعوةِ ذلك الرَّسولِ: سنُعَذِّبهم قَريبًا، فيُصبِحونَ نادِمينَ على كُفرِهم وتَكذيبِهم. فانتقَم الله منهم بأنْ أخَذتْهم صَيحةٌ شَديدةٌ، وهم يستحِقُّون ذلك العقابَ، فجعَل اللهُ هؤلاء الكافرينَ هامدينَ هلْكَى، كغُثاءِ السَّيلِ الَّذي يَطْفو على الماءِ لا منفعةَ فيه؛ فبُعدًا للقومِ الظَّالِمينَ مِن رَحمةِ اللهِ.

ثمَّ يخبرُ تعالى أنه أنشأَ مِن بَعدِ أولئك القوم المكَذِّبينَ أقوامًا آخَرينَ، ما تتقَدَّمُ أيُّ أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ المكَذِّبةِ الوَقتَ الذي حدَّده اللهُ لهَلاكِها، ولا تَتأخَّرُ عنه.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿44﴾

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى) أي: ثمَّ أرسَلْنا رُسُلَنا مُتواتِرينَ يَتبَعُ بَعضُهم بَعضًا، واحدًا بعدَ واحدٍ؛ إلى أُمَمٍ أُخرى بعد أولئك القَومِ المهلَكينَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل: 36].

(كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ) أي: كلَّما جاء رَسولٌ إلى أُمَّةٍ مِن تلك الأُمَمِ كَذَّبوه، فلم يَقبَلوا ما جاء به مِنَ الحَقِّ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) [يس: 30].

وقال سُبحانه: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) [سبأ: 34].

(فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا) أي: فأهلَكْنا تِلك الأُمَمَ بعَذابِ الاستِئصالِ؛ بَعضَهم في إثْرِ بَعضٍ. موسوعة التفسير

والله -سبحانه- قويٌّ قديرٌ قاهر إذا نزلَ عذابُه لم يرُدَّه أحدٌ، والعقوبةُ الإلهية سنةٌ من سنن الله التي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل، قال -عز وجل-: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)[آل عمران: 137].

لقد كانت الأممُ السالفةُ تُعذَّبُ باستِئصالِها جميعًا، قال -سبحانه-: (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[الأنعام: 45]، ولما بعثَ الله موسى -عليه السلام- رفعَ الله برحمته عذابَ إهلاك الأمةِ جميعًا، قال -سبحانه-: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ

الْأُولَى)[القصص: 43]، قال شيخُ الإسلام -رحمه الله-: "وكان قبل نزول التوراة يُهلِكُ اللهُ المكذِّبين للرسل بعذابِ الاستِئصال عذابًا عاجِلًا، يُهلِكُ اللهُ به جميعَ المكذِّبين".

وسأل النبي -عليه الصلاة والسلام- ربَّه أن لا يُهلِكَ أمَّتَه جميعًا؛ فقال -عليه الصلاة والسلام-: "سألتُ ربي أن لا يُهلِكَ أمَّتي بالسَّنَةِ-أي: بالجُوعِ- فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهلِكَ أمَّتي بالغرق فأعطانيها، وسألتُه أن لا يجعلَ بأسَهم بينهم فمنعنيها"(رواه مسلم).

كما قال سُبحانَه: (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ) [الأنبياء: 11].

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) أي: وصَيَّرْناهم أخبارًا للنَّاسِ يتحَدَّثونَ بها عنهم. موسوعة التفسير

(فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) أي: فبُعدًا مِن رَحمةِ اللهِ وهَلاكًا لقَومٍ لا يُؤمِنونَ بوَحدانيَّةِ اللهِ، ويُكَذِّبونَ رُسُلَه. موسوعة التفسير

هل من مُتذكِّر؟! هل من مُعتبِر؟! ألا يرحمُ نفسه هذا الغافل؟! ألا يتوب إلى الله تعالى هذا المتمادي؟! ألا يقلِعُ عن المعاصِي هذا المغترُّ بحلمِ ربِّه؟! ألا يستحِي من الله -عز وجل- الذي أنعمَ عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو يبارِزُه بالذنوب؟! ألا يلينُ قلبُه القاسي للمواعِظ والآيات؟! ألا يحاسِبُ نفسه قبل الممات؟! ألا يعلم أن لذَّات المحرَّمات تنقضِي وتُنسَى كأن لم تكن، وتبقى التَّبِعات؟! أما يرى كثرةَ الغادين والرَّائِحين الذين يُشيِّعون إلى رب العالمين، ونحن غدًا على النعشِ من المحمولين؟! أنظنُّ أن الله غافلٌ عما يعمل الظالمون؟! وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ليعتبر الكيس الفطن بأخبارهم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿45﴾

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ) أي: ثمَّ أرسَلْنا بَعدَ أولئك الرُّسُلِ مُوسى وأخاهُ هارونَ بمُعجِزاتِنا وحُجَّةٍ بَيِّنةٍ واضِحةٍ. موسوعة التفسير

قال أبو حيان: (بِآيَاتِنَا قال ابنُ عباسٍ: هي التِّسعُ؛ وهي: العصا، واليدُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضفادعُ، والدمُ، والبحر، والسِّنونَ، ونقصٌ مِن الثمراتِ. وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ قيل: هي العصا واليد، وهما اللَّتان اقترن بهما التحدِّي، ويدخلُ في عمومِ اللفظِ سائرُ آياتِهما.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ ﴿46﴾

(إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) أي: إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه، فاستَكبَروا عنِ الإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ الَّذي جاءَهم مِن عندِ اللهِ، وكانوا قَومًا قاهِرينَ لبني إسرائيلَ ظالِمينَ لهم، خُلُقُهم وسَجِيَّتُهم الكِبْرُ. موسوعة التفسير

و الكِبْرُ من الكبائر المهلكات، وهو سمة السفهاء، ولا يليق إلا بالأراذل الجهلاء، ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه، وإزالته فرض عين، ولكنه لا يزول بالتمني، بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له، وإذا عرف العبد ربه؛ علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله العلي العظيم.

من صفات المتكبر: الاستهزاء بآيات الله، واتخاذها مادة للسخرية، استكباره عن الحق، واحتقار الناس.

(قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ...)

وأسباب الكبر وبواعثه أربعة: العجب، والحقد، والحسد، والرياء؛ فالكبر خلق باطن، وما يظهر على الجوارح من الأخلاق والأفعال التي تدل على الكبر فهي ثمرة ونتيجة للكبر الباطني؛ الذي هو عبارة عن استعظام النفس، ورؤية قدرها فوق قدر الغير.

إن الإنسان حين يخلو قلبه من الإيمان بالله، والشعور بعظمة الخالق القاهر فوق عباده، تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان أو قوة أو جمال، والكبر يمقته الله لبطره ونسيان نعمته، ويكرهه الناس لانتفاشه وتعاليه (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا)[الإسراء:37].

وللكبر ثلاثة أقسام:

الأول: التكبر على الله: وهو أفحش أنواع الكبر، وهو يصدر من كل من ادعى الربوبية كفرعون وغيره، وقد توعد الله هؤلاء بقوله: (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)[غافر:60].

الثاني: التكبر على رسل الله؛ من حيث تعزز النفس، وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وهذا يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره، فيمتنع عن الانقياد، ولا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل؛ كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا)[الفرقان:21].

الثالث: التكبر على الخلق؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويحقر غيره، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم، فيزدريهم ويستصغرهم، ويأنف من مساواتهم، ولذلك شرح رسول الله -ﷺ- الكبر بآفتين في قوله: "الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ"(رواه مسلم)، فكل من رد الحق وهو يعرفه، وأنف أن يخضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر عن الحق فيما بينه وبين الله -تعالى- ورسله. وكل من رأى أنه خير من أخيه، واحتقره وازدراه، ونظر إليه بعين الاستصغار، ورد ما قاله من الحق فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق.

إن الله -عزَّ وجلَّ- خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلق الليل والنهار، وخلق الشمس والقمر والنجوم، وخلق الملائكة الذين لا يحصيهم إلا هو، وخلق كل شيء، وجميع هذه المخلوقات مطيعة لربها، منقادة لأوامره، عابدة له، ومتى استكبر البشر عن عبادة الله بعد معرفتهم لهذه الآيات الكبرى، والمخلوقات العظمى، فهذا لن يقدم أو يؤخر، فغيرهم من جميع الكائنات يعبد الله غير مستكبر في العالم العلوي، وفي العالم السفلي كما قال -سبحانه-: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)[النحل:49-50]، وقال -سبحانه-: (فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ)[فصلت:38]، فمن خشع وخضع فلنفسه، ومن تكبر وتجبر

فعليها، فلا طاعة تزيد في ملك الله، ولا معصية تنقص من ملكه، في الحديث القدسي قال عز وجل: "لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ؛ ما زَادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي، لوْ أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ ما نَقَصَ ذلكَ مِن مُلْكِي شيئًا" صحيح مسلم

ومن وسائل علاج الكبر:

❶ : استئصال شجرته من القلب، ووسيلة ذلك أن يعرف الإنسان ربه ويعرف نفسه هو سبحانه قوي قادر غني، وانت ضعيف عاجز فقير.

❷أَنْ يُدْرِكَ الْمُتَكَبِّرُ أَنَّ النَّاسَ لَا تُطِيقُ مِثلَهُ، وَلَا تُحِبُّهُ، وَلَا تَتَمَنَّى اللِّقَاءَ بِهِ وَلَا الْجُلُوسَ مَعَه، بَلْ تَزْدَرِيهِ وَتَحْتَقِرُهُ، فَمَنِ احْتَقَرَ النَّاسَ احْتَقَرُوهُ، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلنَّاسِ رَفَعُوهُ، وتِلكَ سُنَّةُ اللهِ في خَلْقِهِ، قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ" رواه مُسلمٌ.

قَالَ الإمَامُ ابْنُ بَازٍ – رَحِمَهُ اللهُ –:" فَالْوَاجِبُ عَلَى مَنِ ابْتُلِيَ بِدَاءِ الْكِبْرِ، أَنْ يُفْكِّرَ فِي عُيُوبِهِ، وَأَنَّهُ عَبْدٌ ضَعِيفٌ لَا حَوْلَ لَهُ وَلا قُوَّةَ، وَأَنَّهُ مَيِّتٌ لَا مَحَالَةَ، وَلَا يَنْفَعُهُ فِي الْآخِرَةِ كِبْرُهُ الَّذِي يَتَكَبَّرُ بِهِ، بَلْ هُوَ وَبَالٌ عَلَيهِ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ". اهـ

❸وَمِنْ الْعِلاَجِ أَنْ يَعْلَمَ الْمُتَكَبِّرُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ؛ أَنَّه بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، يَعْتَرِيهِ مِنَ الْعُيُوبِ والآفاتِ وَالْأَسْقَامِ مَا يَعْتَرِيهِمْ، وَالْأَيَّامُ دُوَلٌ، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ فَمَا يَدْرِي لَرُبَّمَا تَغَيَّرَتِ الْأَحْوالُ وَتَقَلَّبَتْ بِهَذَا الإِنْسانِ الْمَغْرُورِ الْمُتَكَبِّرِ، فَيَذِلُّ بَعْدَ عِزٍّ، وَيَفْتَقِرُ بَعْدَ غِنًى، وَيَعْلُو عَلَيه مَنْ كَانَ يَتَرَفَّعُ عَلَيه، فَلِمَ الْكِبْرُ وَالْعُجْبُ وَالْغُرُورُ؟ ...

❹وأيضاً الْبُعْدُ عَنْ مُخَالَطَةِ أَهْلِ الْكِبْرِ وَأَهْلِ الْبَطَرِ والرِّياءِ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَنْزَعُ الْكِبْرَ وَالْعُجْبَ فِي النَّفْسِ وَتُنَمِّيهِ، ثَبَتَ عَنْه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ: "الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ" رواه الإمامُ أحمدُ.

❺وَمِنْ ذَلِكَ: أَنْ يَتَذَكَّرَ الْعَبْدُ أَنَّه ضَعِيفٌ فَقِيرٌ ذَلِيلٌ، مَا يَلْبَثُ عُمُرُهُ أَنْ يَنْتَهِيَ فِي أيِّ لَحْظَةٍ، وَمَا يَلْبَثُ أَنْ يَمْرَضَ بِأَصْغَرِ وَأَقَلِّ مَرَضٍ، وَمَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْقَطِعَ جُهْدُهُ بِأَقَلِّ مَجْهُودٍ أَوْ عَمَلٍ!! ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[فاطر: 15].

❻وَمِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ الْعِلاَجِ: أَنْ يَعْلَمَ الإِنْسانُ عُقُوبَةَ الْكِبْرِ وَجَزَاءَ الْمُتَكَبِّرِينَ؛ فَإِنَّ الْعُقُوبَةَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُتَكَبِّرِينَ هِي عُقُوبَةٌ شَدِيدَةٌ عَظِيمَةٌ، تَقْشَعِرُّ لَهَا الأَبْدَانُ وَتَرْتَجِفُ لَهَا الْقُلُوبُ:

فمن عقوبة المتكبر في الدنيا:

❶أنه يخسف به كما ورد في الحديث الذي يحكي عاقبة ذلك الرجل الذي كان يختال في مشيته كبرا وعجبا بثيابه: قال –ﷺ–:"بيْنَما رَجُلٌ يَجُرُّ إزارَهُ مِنَ الخُيَلاءِ، خُسِفَ به، فَهو يَتَجَلْجَلُ في الأرْضِ إلى

يَومِ القِيامَةِ "صحيح البخاري. وكما حكى القرآن الكريم عن قارون (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ)[القصص:81].

❷ومن عقوبة الله للمتكبرين في الدنيا: تسليطه الآيات المهلكة، والأزمات والمصائب والأمراض عليهم، وقد كانت عقوبة فرعون وقومه بذلك، جزاءً لاستكبارهم (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ)[الأعراف:133].

📂أمّا في الآخرة:

❶فإن العذاب والجحيم جزاء كل متكبر (فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)[الأحقاف:20]، وقال -تعالى-: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)[غافر:60].

❷والكبر قليله وكثيره موجب للحرمان من الجنة (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)[الأعراف:40]، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ" صحيح مسلم.

❸والذل والصغار والتحقير هو مصير المتكبرين يوم القيامة، قال -ﷺ-: " يُحشَرُ المتَكَبِّرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ في صُوَرِ الرِّجالِ يغشاهمُ الذُّلُّ من كلِّ مَكانٍ، يُساقونَ إلى سجنٍ في جَهَنَّمَ يسمَّى بولُسَ تعلوهُم نارُ الأَنْيارِ يَسقونَ من عُصارةِ أَهْلِ النَّارِ طينةَ الخبالِ ". (رواه الترمذي، وحسنه الألباني).

📝إن على الإنسان أن يدفع الكبر عن نفسه؛ بأن يعرف أصله ونشأته وفقره، ويعرف نعم الله عليه، ويتذكر مقامه بين يديه، وعاقبة المتكبرين يوم القيامة، ويتصور أنه ليس له جَلَد على ذلك العذاب الأليم.

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ ﴿47﴾

(فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ) أي: فقال فِرعَونُ ومَلَؤُه: أنُصدِّقُ مُوسى وهارونَ ونُقِرُّ لهما، وهما بَشَرانِ مِثلُنا في المأكَلِ والمشرَبِ وغيرِهما مِمَّا يَعْتري أحوالَ البَشَرِ، وقَومُهما لنا مُطيعونَ ذَليلونَ خاضِعونَ؟! فكيف نَتَّبِعُهما. موسوعة التفسير

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ ﴿48﴾

(فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ) أي: فكذَّب فِرعَونُ ومَلَؤُه مُوسى وهارونَ، فأغرَقَهم اللهُ، فكانوا مِمَّنْ أهلكهم الله؛ لِتَكذيبِهم رُسُلَ اللهِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) [الفرقان: 35، 36].

قال البقاعي: فلم تُغْنِ عن فِرْعونَ ومَلَئِه قُوَّتُهم في أنفُسِهم، ثُمَّ قُوَّتُهم على خُصوصِ بني إسرائيلَ باستِعْبادِهم إيَّاهم، ولا ضَرَّ بني إسرائيلَ ضَعْفُهم عن دِفاعِهم، ولا ذُلُّهم لهم وصَغارُهم في أيدِيهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فإذا عرَفَ الإنسانُ قَصَصَ الأنبياءِ ومَن اتَّبَعهم، ومَن كذَّبهم، وأنَّ مُتَّبِعيهم كان لهم النَّجاةُ والعاقِبةُ والنَّصرُ والسَّعادةُ، ولِمُكَذِّبِهم الهَلاكُ والبَوارُ؛ جَعَل الأمرَ في المستقبَلِ مِثلَما كان في الماضي، فعَلِمَ أنَّ مَن صَدَّقَهم كان سَعيدًا، ومَن كذَّبهم كان شَقيًّا. وهذه سُنَّةُ اللهِ وعادتُه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿49﴾

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) أي: ولقدْ آتَينا مُوسى التَّوراةَ؛ كي يَهتَديَ بنو إسرائيلَ باتِّباعِها. موسوعة التفسير

تكرر ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم أكثر من مائة مرة، وكان النبي -ﷺ- عندما يشتد به الأذى، يقول: (رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى قدْ أُوذِيَ بأَكْثَرَ مِن هذا فَصَبَرَ) متفق عليه.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ﴿50﴾

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) أي: وجعَلْنا عِيسى ابنَ مَريمَ وأُمَّه مَريمَ حُجَّةً عَجيبةً واضِحةً للنَّاسِ، تدُلُّهم على قُدرةِ اللهِ على خَلقِ ما يَشاءُ؛ حيثُ خَلَقَ عِيسى مِن أُمٍّ بلا أبٍ. موسوعة التفسير

قال البقاعي: نسَبَه إليها؛ تَحقيقًا لكَونِه لا أبَ له، وكَونِه بَشرًا مَحمولًا في البَطنِ مَولودًا، لا يَصلُحُ لِرُتبةِ الإلهيَّةِ؛ وزاد في تَحْقيقِ ذلك بقولِه: وَأُمَّهُ.

فإنَّ نِسْبتَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إليها -معَ أنَّ النَّسبَ إلى الآباءِ- دالَّةٌ على أنْ لا أبَ له، أي: جَعَلْنا ابنَ مَريمَ وحْدَها مِن غَيرِ أنْ يَكونَ له أبٌ، وأُمَّه الَّتي ولدَتْهُ خاصَّةً مِن غَيرِ مُشارَكةِ الأبِ: آيةً.

(وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) أي: وصَيَّرْنا عِيسى وأُمَّه مَريمَ إلى مَكانٍ مُرتَفِعٍ مِنَ الأرضِ، مُستَوٍ مُستَقِرٍّ، وفيه نَهْرٌ جارٍ ظاهِرٌ للعِيَانِ. موسوعة التفسير

قال البقاعي: فيه تَنويهٌ بهما؛ إذ جَعَلَهما اللهُ مَحَلَّ عِنايَتِه، ومَظهَرَ قُدرتِه ولُطْفِه.

وقال السعدي: (وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ أي: مكانٍ مرتفِعٍ، وهذا -والله أعلم- وقتُ وَضعِها، وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ أي: مُستقرٍّ وراحةٍ وَمَعِينٍ أي: ماءٍ جارٍ؛ بدليلِ قوله: قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ [مريم: 24] أي: تحتَ المكانِ الذي أنت فيه؛ لارتفاعِه سَرِيًّا أي: نهرًا، وهو المعِينُ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا [مريم: 25-26])، ((تفسير السعدي))

ماءٍ مَعينٍ: ووُصِفَ ماؤُها بذلك؛ للإيذانِ بكَونِه جامِعًا لفُنونِ المنافِعِ؛ مِن الشُّربِ، وسَقْيِ ما يُسْقَى من الحيوانِ والنَّباتِ بغَيرِ كُلْفةٍ، والتَّنزُّهِ بمَنظَرِه المونِقِ، وطِيبِ المكانِ. الدرر السنية

كانت مريم العذراء تعرف بعفتها وحصانتها؛ فالله تعالى اصطفاها على نساء العالمين، ونشأت في بيت نبوة وصلاح وكانت عابدة زاهدة لا تفارق المحراب، حتى بشرتها الملائكة ذات يوم ببشرى جعلتها تتعجب؛ فنبأتها الملائكة بأنها سترزق بغلام ذكر له شأن عظيم، وأن ولادته ستكون من غير زواج، وهذا

الغلام اسمه المسيح عيسى ويُنسب لأمه مريم وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن هذه البشرى حيث قال الله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}، فبدأت تفكر في نفسها كيف تُرزق بغلام من غير زواج، وما هو موقفها أمام قومها، وقد جاء نبأ ذلك في كتاب الله حيث قال الله تعالى: {قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}، فلما استسلمت لأمر الله تعالى اعتزلت الناس، واتخذت مكانًا بعيدًا تنتظر به أمر الله تعالى الذي قدّره عليها.

كانت ولادة عيسى -عليه السلام- ثقيلة على نفس على مريم العذراء؛ بسبب خوفها من عتاب الناس ولومِهم حتى أنّه لما حان وقت ولادتها تمنت لو أنّها ماتت ولم يحدث معها الذي حدث، فلما ولدت عيسى -عليه السلام- وخرج إلى الدنيا، نادها جبريل -عليه السلام- من تحتها يطمئنها ويوصيها بأن لا تحزن لأنّ الله تعالى أكرمها بهذه الولادة ورزقها سيدًا عظيمًا ورجل ذو شأن ونبي من أنبياء الله. وأمرها أن تهز النخلة لتحصل منها على الرطب، لكي تتقوى وتقدر على العيش، وطلب إليها أيضًا أن لا تكلم الناس، وتجعل عدم كلامها نذرًا لله تعالى.

بعدما ذهبت مريم العذراء إلى قومها، مع ابنها المسيح عيسى، انهال عليها اللّوم والعتب، فبدأوا يتكلمون بأن ما جاءت به لا يوافق العقل، فكيف يكون مولود بلا أب؟ وليشعروا مريم بالذنب ذكروها بالصالحين من أهلها وبأنّها من سلالة الأنبياء، إلا أن مريم لم تنطق بحرف واحد؛ فهي قد نذرت عدم الكلام، وكل ما فعلته هي أنّها أشارت إلى ابنها في حضنها. فتكلم عيسى -عليه السلام- وهو في مهده بقدرةٍ من الله تعالى، ليندهش الجميع ويستمعوا إلى قوله: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا* وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا* وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا* وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}.

كان عيسى -عليه السلام- قد هاجر مع والدته من مسقط رأسه بيت لحم إلى مصر، وبعدها عاد إلى بيت المقدس، وكان آنذاك يبلغ من العمر 13 عامًا، ولما بلغ من العمر 30 عامًا أنزل الله تعالى عليه كتاب الإنجيل، وحمل عيسى -عليه السلام- الرسالة إلى بني إسرائيل، وكان مجددًا لما جاء به موسى -عليه السلام- ومصدقًا لما جاء في كتاب موسى الذي سبقه، حيث قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}.

دعا عيسى -عليه السلام- قومه إلى عبادة الله تعالى وحده، وترك الإشراك به، وجددّ رسالة موسى -عليه السلام- ودعا الناس إلى ما كانت تدعو إليه، كما جاء بشريعة جديدة تناسب الحال التي كانوا عليها، ودعا قومه إلى الإيمان بالكتب السماوية التي سبقته، وبشرّ قومه بنبوة محمد صلى الله عليه وسلّم.

لما بدأ عيسى -عليه السلام- يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، وعرض عليهم المعجزات العظيمة التي آتاه الله إياها، كان حالهم هو الإعراض عنه والكفر بما دعاهم إليه، وآمن معه قلة قليلة من الناس وقد أخبر الله تعالى أن نتيجة دعوة عيسى -عليه السلام- هو إيمان طائفة من بني إسرائيل وكفر طائفة.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ﴿51﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ عيسَى عليه السَّلامُ على مِنْهاجِ إخوانِه مِنَ الرُّسلِ في الأكْلِ والعِبادةِ، وجميعِ الأحوالِ؛ زاد في تَحقيقِ ذلك بَيانًا لِمَن ضَلَّ بأنِ اعتقَدَ فيه ما لا يَليقُ به، فقال مُخاطِبًا لِجَميعِ الرُّسلِ.

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا) أي: يا أيُّها الرُّسُلُ، كُلُوا مِنَ الرِّزقِ الحَلالِ المستلَذِّ النَّافِعِ، واعْمَلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ الخالِصةَ للهِ، الموافِقةَ لِشَريعتِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [البقرة: 172].

تَحذيرٌ مِن مُخالَفةِ ما أمَرَهُم به، وإذا كان ذلك تَحذيرًا للرُّسلِ مع عُلُوِّ شأْنِهم، فبأنْ يكونَ تَحذيرًا لِغَيرِهم أَوْلى؛ فهو تَحذيرٌ، والمرادُ أتْباعُهم.

قال ابن عاشور: وفيه أيضًا تَحريضٌ على الاستِزادةِ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ؛ لأنَّ ذلك يَتضمَّنُ الوعْدَ بالجَزاءِ عنها، وأنَّه لا يَضِيعُ منه شَيءٌ؛ فالخَبرُ مُستعمَلٌ في التَّحريضِ.

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أيُّها النَّاسُ، إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمَرَ المؤمِنينَ بما أمَرَ به المرسَلينَ؛ فقال: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ [المؤمنون: 51]، وقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ [البقرة: 172]، ثمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أشعَثَ أغبَرَ ، يَمُدُّ يَدَيه إلى السَّماءِ: يا رَبِّ، يا رَبِّ، ومَطعَمُه حَرامٌ، ومَشرَبُه حَرامٌ، ومَلبَسُه حَرامٌ، وغُذِيَ بالحَرامِ؛ فأنَّى يُستَجابُ لذلك؟!))رواه مسلم .

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) أي: لا يَخْفى علَيَّ شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسأُجازيكم عليها جَميعًا؛ فاجتَهِدوا في صالِحِ الأعمالِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: هذا أمْرٌ منه تَعالى لِرُسلِه بأكْلِ الطَّيِّباتِ الَّتي هي الرِّزقُ الطَّيِّبُ الحلالُ، وشُكْرِ اللهِ بالعمَلِ الصَّالحِ الَّذي به يَصلُحُ القَلْبُ والبدَنُ، والدُّنيا والآخرةُ، ويُخبِرُهم أنَّه بما يَعْمَلون عليمٌ، فكلُّ عمَلٍ عَمِلُوه، وكلُّ سَعْيٍ اكتَسَبوه؛ فإنَّ اللهَ يَعلَمُه، وسيُجازيهم عليه أتَمَّ الجزاءِ وأفضَلَهُ، فدَلَّ هذا على أنَّ الرُّسلَ كلَّهم مُتَّفِقون على إباحةِ الطَّيِّباتِ مِنَ المآكِلِ، وتَحريمِ الخبائثِ منها، وأنَّهم مُتَّفِقون على كلِّ عمَلٍ صالحٍ وإنْ تَنوَّعَتْ بَعضُ أجناسِ المأموراتِ، واختلَفَتْ بها الشَّرائعُ؛ فإنَّها كلَّها عمَلٌ صالِحٌ، ولكنْ تَتفاوَتُ بتَفاوُتِ الأزمنةِ.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ ﴿52﴾

(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) أي: وقُلْنا للرُّسُلِ: إنَّ دِينَكم جَميعًا دِينٌ واحِدٌ، وهو الإسلامُ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ [آل عمران: 19].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((أنا أَولى النَّاسِ بعِيسى ابنِ مَريمَ في الدُّنيا والآخِرةِ، والأنبياءُ إخوةٌ لِعَلَّاتٍ (الَّذين أُمَّهاتُهم مُختلفةٌ وأبُوهُم واحِدٌ؛ أرادَ أنَّ إيمانَهم واحِدٌ، وشرائعَهُم مُختلفةٌ)؛ أُمَّهاتُهم شَتَّى، ودِينُهم واحِدٌ)) رواه البخاري

(وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) أي: وأنا رَبُّكم فاتَّقوني بفِعلِ أوامِري، واجتِنابِ نَواهيَّ، ولا تُشرِكوا بي شَيئًا. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) [الأنبياء: 92].

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿53﴾

(فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا) أي: فتَفرَّقَ النَّاسُ مِن أُمَمِ الرُّسُلِ في هذا الدِّينِ الواحِدِ الَّذي شرَعَه اللهُ لهم؛ وجعلوه كُتبًا وضَعوها، دانَ كلُّ فريقٍ منهم بكتابٍ غيرِ كُتبِ الفِرَقِ الأخرَى، وجعَل كلُّ فريقٍ منهم لنفْسِه دِينًا. موسوعة التفسير

قال القرطبي: في (قَولُه تعالى: زُبُرًا يعني: كُتُبًا وَضَعوها، وضَلالاتٍ ألَّفوها، قاله ابنُ زيدٍ. وقيل: إنَّهم فرَّقوا الكُتُبَ، فاتَّبَعت فِرقةٌ الصُّحُفَ، وفِرقةٌ التَّوراةَ، وفِرقةٌ الزَّبورَ، وفِرقةٌ الإنجيلَ، ثمَّ حُرِّفَ الكُلُّ وبُدِّلَ، قاله قتادةُ. وقيل: أخَذَ كُلُّ فريقٍ منهم كتابًا آمَنَ به، وكفَرَ بما سِواه).

كما قال تعالى: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [آل عمران: 105].

وقال سبحانه: وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ [الأنبياء: 93].

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) أي: كلُّ فَريقٍ منهم مَسْرورونَ بما اختارُوه لأنفُسِهم، فَرِحونَ بباطِلِهم، يَعتَقِدونَ أنَّهم على الحَقِّ دونَ مَن سِواهم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) [الروم: 32].

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ ﴿54﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قبلَها: قال ابن حيان: أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مَن ذَكَرَ مِنَ الأُمَمِ، ومآلَ أمْرِهم مِنَ الإهلاكِ حين كذَّبوا الرُّسلَ، كان ذلك مِثالًا لِقُريشٍ؛ فخاطَبَ رَسولَه في شأْنِهم بقولِه

(فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ) أي: فاتْرُكْ -يا مُحَمَّدُ- هؤلاء المشرِكينَ المختَلِفينَ في دِينِهم، الَّذين هم بمَنزلةِ مَن تقدَّمَ؛ اترُكْهم في حَيْرَتِهم وضَلالتِهم وغَفلَتِهم الَّتي غَرِقوا فيها، إلى أنْ يأتيَهم العَذابُ أو الموتُ. موسوعة التفسير

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال الله تعالى: فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ أي: فيما يغمُرُ قُلوبَهم مِن حُبِّ المالِ والبنينَ، المانِعِ لهم مِن المسارَعةِ في الخيراتِ والأعمالِ الصَّالحةِ).

كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) [الأنعام: 159].

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾﴿55﴾﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿56﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا كان القومُ في نِعَمٍ عَظيمةٍ في الدُّنيا، جاز أنْ يظُنُّوا أنَّ تلك النِّعمَ كالثَّوابِ المعجَّلِ لهم على أديانِهم؛ فبيَّنَ سُبحانَه أنَّ الأمْرَ بخِلافِ ذلك.

قال البقاعي: وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان الموجِبَ لِغُرورِ الكافرينَ ظَنُّهم أنَّ حالَهم -في بَسْطِ الأرزاقِ مِن الأموالِ والأولادِ- حالُ الموعودِ لا المتوعَّدِ، أنْكَر ذلك عليهم؛ تَنبيهًا لِمَن سبَقَتْ له السَّعادةُ، وكُتِبَت له الحُسْنى وزِيادةٌ، فقال

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ) أي: أيظُنُّ أولئك الَّذين فَرَّقوا دِينَهم أنَّ ما نَبسُطُه عليهم في الدُّنيا مِنَ الأموالِ والأبناءِ هو تَعجيلٌ لِثَوابِهم؛ لِمَعزَّتِهم وكَرامتِهم عندنا؟! كلَّا! ليس الأمرُ كما يَزعُمونَ، بلْ هم يُسارِعونَ في أسبابِ الشُّرورِ، ولكِنْ لا يَشعُرونَ أنِّي أُعْطِيهم ذلك فِتْنةً واستِدراجًا لهم. موسوعة التفسير

الاستِفهامُ في قولِه: أَيَحْسَبُونَ استِفهامٌ إنكاريٌّ وتَوبيخيٌّ على هذا الحُسبانِ. الدرر السنية

قال أبو حيان: وقَّفَهم تعالى على خطَأِ رأْيِهم في أنَّ نِعمةَ اللهِ عليهم بالمالِ ونَحْوِه إنَّما هي لِرِضاهُ عن حالِهم، وبيَّنَ تعالى أنَّ ذلك إنَّما هو إملاءٌ واستِدراجٌ إلى المعاصي، واستِجرارٌ إلى زِيادةِ الإثْمِ، وهم يَحْسَبونه مُسارَعةً لهم في الخَيراتِ، ومُعاجَلةً بالإحسانِ.

قال ابن القيم: كلُّ لذَّةٍ أعقَبَتْ ألَمًا، أو منَعَتْ لذَّةً أكمَلَ منها؛ فليست بِلَذَّةٍ في الحقيقةِ، وإنْ غالَطَتِ النَّفْسُ في الالتِذاذِ بها؛ فأيُّ لَذَّةٍ لآكِلِ طَعامٍ شَهِيٍّ مَسمومٍ يُقطِّعُ أمعاءَه عن قَريبٍ؟! وهذه هي لَذَّاتُ الكُفَّارِ والفُسَّاقِ بعُلُوِّهم في الأرضِ وفَسادِهم، وفرَحِهم فيها بغَيرِ الحقِّ ومرَحِهم، وذلك مِثْلُ لَذَّةِ الَّذين اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ يُحِبُّونَهم كحُبِّ اللهِ، فنَالوا بهم مَودَّةَ بَيْنِهم في الحياةِ الدُّنيا، ثمَّ استحالَتْ تلك اللَّذَّةُ أعظَمَ ألَمٍ وأمَرَّهُ، ومِن ذلك لَذَّةُ العقائِدِ الفاسدةِ والفرَحِ بها، ولَذَّةُ غَلبةِ أهْلِ الجَورِ والظُّلمِ والعُدوانِ، والزِّنا، والسَّرقةِ، وشُربِ المسكِراتِ، وقد أخبَرَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى أنَّه لم يُمَكِّنْهم مِن ذلك لِخَيرٍ يُريدُه بهم، إنَّما هو استِدراجٌ مِنه؛ لِيُنيلَهم به أعظَمَ الألَمِ.

ما ظهرت المعاصي في ديار إلا أهلكتها، ولا تمكنت من قلوب إلا أعمتها، ولا فشت في أمة إلا أذلتها؛ ولقد وعى السلف الصالح هذا الخطر العظيم للمعصية فنطق الحسن البصري -رحمه الله- مبيناً شؤم الذنوب، وما يغشى الوجوه من ذلةٍ وهوانٍ بسببها، فقال: إنهم، وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إنَّ ذلَّ المعصيةِ لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل مَن عصاه. نعم، إن ذلك كله من هوان العبد على ربه، وسقوطه من عينيه، (وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء) [الحج:18].

إن الذنوب شؤم، قال الامام مجاهد -رحمه الله تعالى- في قول الله سبحانه: (وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) [البقرة:159]، البهائمُ تلعن عصاة بني آدم، حين أمسك الله عنهم بذنوب بني آدم المطر، تخرج البهائم فتلعنهم.

قولُه: بَل لَا يَشْعُرُونَ (بَلْ) استِدْراكٌ لقولِه: أَيَحْسَبُونَ، يعني: بل هم أشباهُ البهائمِ، لا فِطْنةَ بهم ولا شُعورَ حتَّى يتأمَّلوا ويَتفكَّروا في ذلك: أهوَ استِدْراجٌ، أم مُسارَعةٌ في الخيرِ؟ وفيه تَهديدٌ ووَعيدٌ. ((تفسير الزمخشري))، ((تفسير أبي حيان))

كما قال تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) [آل عمران: 178].

وقال سُبحانَه: (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) [التوبة: 55].

إن من أشد ما نخافه، وينذر باشتداد الأزمة، واستحكام البلية، وتتابع المصائب، هو ما نحن فيه من غفلة، وموت القلب والإحساس، مع طوارق هذه الآيات؛ اغترارا بالدنيا، وأمناً من مكر الله تعالى، وفرحاً بمد الله لنا، وكأنا ما قرأنا قوله تعالى: (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) [المؤمنون:55-56]، فالكوارث تدق علينا الأبواب، والأخطار الجسيمة تحيط بنا من كل جانب، ونحن في سكرتنا وغفلتنا، لم نقلع عن الذنوب، ولم نحاذر الشهوات.

هذه هي الذنوب، سمٌّ يسري في الأبدان فيهلكها، وفي البلدان فيفسدها، وإن لها أضرارًا عظيمة، وعواقب وخيمة، حريٌّ بكل عاقلٍ تدبرها أن يفر منها فراره من الأسد، ومنها: حرمان العلم؛ فالعلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَنٍ تَسَاهَلَ فِيهِ الْبَعْضُ بِالذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَأَصْبَحَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَنِسَائِهِمْ مَنْ يُجَاهِرُ بِالذَّنْبِ وَالْمَعْصِيَةِ وَكَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَهِينُ بِالذُّنُوبِ وَيُدْمِنُ عَلَى مَعْصِيَةِ عَلَّامِ الْغُيُوبِ، فَتَرَاهُ يَحْضُرُ وَيَنْشُرُ وَيَدْعُو لِأَمَاكِنِ الْفِسْقِ وَالْمُجُونِ وَيُبَارِزُ اللَّهَ بِالْمَعَاصِي وَالْآثَامِ.

مِنْ أَبْرَزِ الْآثَارِ لِلذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي عَلَى الْمُجْتَمَعِ أَنَّهَا مِنَ الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِسَخَطِ اللَّهِ وَحُلُولِ عِقَابِهِ؛ كَحُدُوثِ الزَّلَازِلِ الْمُدَمِّرَةِ، وَالْأَعَاصِيرِ الْقَاصِفَةِ، وَالْحُرُوبِ الطَّاحِنَةِ، وَالْأَمْرَاضِ الْفَتَّاكَةِ، فَالْمَعَاصِي

تُزِيلُ النِّعَمَ، وَتُحِلُّ النِّقَمَ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشُّورى: 30].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ، يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا، يُعْزَفُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ وَالْمُغَنِّيَاتِ، يَخْسِفُ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ وَيَجْعَلُ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ...». نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ.

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لم تَظْهَرِ الفاحشةُ في قومٍ قَطُّ؛ حتى يُعْلِنُوا بها؛ إلا فَشَا فيهِمُ الطاعونُ والأوجاعُ التي لم تَكُنْ مَضَتْ في أسلافِهِم الذين مَضَوْا». صحيح الجامع

والْمَعَاصِيَ وَالْآثَامَ تَمْحَقُ بَرَكَةَ الْأَعْمَارِ وَالْأَرْزَاقِ، جَاءَ فِي الْأَثَرِ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ"، وَيَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: " إِنَّ لِلسَّيِّئَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَبْرِ، وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضًا فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ".